

السلطة والإقناع: الاستراتيجيات اللاعنفية تؤثر في قوى أمن
الدولة في صربيا (2000) وأوكرانيا (2004)

Power and Persuasion: Nonviolent strategies
to influence state security forces in Serbia
(2000) and Ukraine (2004)

Anika Locke Binnendijk and Ivan Marovic

Communist and Post-Communist Studies, August 2006
Translation: JPD Systems, December 2020

السلطة والإقناع: الاستراتيجيات اللاعنافية تؤثر في قوى أمن الدولة في صربيا (2000) وأوكرانيا (2004)

أنیکا لوكيه بيننديك* Anika Locke Binnendijk ، إيفان ماروفيك Ivan Marovic

كلية فليتشر للقانون والدبلوماسية، جامعة تفتس Tufts University ، 160 جادة باكارد

Medford ، مدفورد Packard ، ماساشوستس 02155 ، الولايات المتحدة الأمريكية ،

متوافر على الانترنت 17 آب/أغسطس 2006

ملخص

في خلال حملة حركة أوتبور Otpor الصربية للإطاحة بميلوسيفيتش Milosevic في العام 2000 و"الثورة البرتقالية الأوكرانية" في العام (2004)، طوّر المنظمون استراتيجيات واضحة لتعزيز تكاليف القمع ولتقويض رغبة قوى أمن دولة في القيام بأعمال عنيفة ضدهم. وقد لجأوا إلى مجموعة من أساليب الإقناع والردع المصممة خصيصاً لتتلاءم والمؤسسات المعيّنة التي يستهدفونها. فتمكّن نتيجة لذلك، الحراك من تجنّب حملة قمع كبرى.

© 2006 حكام جامعة كاليفورنيا The Regents of the University of California. منشورات إيلسيفير المحدودة المسؤولية Elsevier Ltd. جميع الحقوق محفوظة.

المصطلحات الأساسية: صربيا، أوكرانيا، عسكري، شرطة، اللاعنفي، تغيير النظام.

* المؤلف الرئيس. رقم هاتف: p1 617 894 4839.

العنوان الإلكتروني:

anika.binnendijk@tufts.edu (A.L. Binnendijk).

المقدمة

تشكّل قوى أمن الدولة مركزاً جاذبية حاسماً للأنظمة غير الليبرالية. وقد تلجأ المؤسسة العسكرية ومؤسسة الأمن الداخلي إلى تطبيق مجموعة واسعة من العقوبات ضدّ المشايين المحتملين كأدوات إكراه. كذلك تُخلفُ مقدرة النظام على استغلال هذه الأدوات تأثيرات مباشرة على قدرته على تعزيز سلطته السياسية. كما يشير داهل (Dahl 1971): "إنّ احتمال تقبّل الحكومة أيّ معارضة يزداد مع ارتفاع تكاليف القمع المتوقعة ومع انخفاض قدرة الحكومة على استخدام العنف أو العقوبات الاجتماعية الاقتصادية لقمع هذه المعارضة".

وفي هذا الإطار يتحجج الاستراتيجيون المعنيون بالصراعات اللاعنفية بأن الهدف الجوهرى الأساسى للحراك الغير المسلح يتمثل بتقويض ولاء وطاعة قوى الأمن الداخلى والجيش وغيرهما من "أعمدة الدعم" الأساسية التابعة للنظام (شارب Sharp، 1973؛ أكرمان Ackerman وكرولر Kruegler، 1994؛ هيلفي Helvey، 2004). والواقع أنّ الحركات المدنية تؤدى دوراً حاسماً بعض الشيء فى قدرة النظام على استخدام الجنود ورجال الشرطة ضدها، أكان ذلك من خلال إقناع أصحاب الزى العسكرى بشرعية قضاياها، أو من خلال التفاوض على اتفاقيات تكيفية متبادلة، أو التحجج بالتكاليف السياسية والاقتصادية والأخلاقية المتأتية عن القمع (Sharp، 1973) (شارب Sharp، 1973) 1.

وقد نجح الحراك الصربى أوتبور Otpor للإطاحة بسلوبودان ميلوسيفيتش Slobodon Milosevic (2000) والثورة البرتغالية الأوكرانية (2004) فى تحقيق هذا الهدف. وقد طوّرت منظمو الحراك استراتيجيات واضحة وصريحة لتعزيز تكاليف القمع ولتقويض رغبة قوات أمن الدولة فى القيام بأعمال عنيفة ضدهم مستخدمين مجموعة من تقنيات الإقناع والردع. وسيدقق هذا المقال بالاستراتيجيات المطبقة وبنائياتها على كل دراسة حالة.

التعلم من تجربة الماضي

إنّ قيادة الحراكين الصربى والأوكرانى استندت فى عملية تطوير استراتيجياتها، إلى المحاولات الفاشلة السابقة. ففي أوكرانيا، حققت المخيمات والاحتجاجات الممتدة طوال التسعينيات

1 يشير شارب Sharp إلى ديناميكيات "التحويل" و"التطبيع" و"الإكراه". ص 705 إلى ص 776.

من القرن الماضي انتصاراتٍ قليلةً في وجه نظام ليونيد كوتشما Leonid Kuchma السلطوي التنافسي. وفي خريف العام 2000، أشعلت عملية اغتيال الصحافي الأوكراني جورجي غونغادزه Georgiy Gongadze العنيفة تنفيذاً لأوامر كوتشما Kuchma ، سلسلة احتجاجاتٍ في مناطقٍ كثيرةٍ على الأراضي الأوكرانية². ورغم أنّ المعارضة هدّدت بجمع 200000 محتجٍ في الشوارع لكنّ الحدّ الأقصى للمشاركة في المظاهرات تراوحت من 20000 إلى 50000 متظاهرٍ وهي نقطةٌ شدّدت عليها بكلّ ثقةٍ الرئيس الأوكراني آنذاك كوتشما Kuchma في صيف العام 2004. (صحيفة *Eurasia Daily Monitor*، 24 كانون الثاني/ يناير 2005) وفي العام 2005، تصاعدت الاحتجاجات لتتوجّ بتصادمٍ عنيفٍ بين المتظاهرين والشرطة فأفضت بالتالي إلى انهيار الحراك.

أمّا منظّمو الاحتجاجات الصربيون فدرسوا الحملات الفاشلة المناهضة لميلوسيفيتش Milosevic بين العامين 1996 و1997 التي نوت إلى نهايتها وأدركوا بالتالي صعوبة المحافظة على وجودٍ شعبيٍّ مستمرٍّ في الشارع. وكذلك استرجعوا مظاهرات 9 آذار 1991 عندما دعت حركة التجديد الصربية، بقيادة فوك دراسكوفيتش Vuk Draskovic ، إلى تجمّع حاشد للاحتجاج على التقارير المتحيزة التي تبثّها قناة التلفزيون التابعة للدولة. وقد أقدم ميلوسيفيتش Milosevic وقتئذٍ على إرسال الشرطة لتشتيت المحتجين باستخدام القنابل المسيلة للدموع وخراطيم المياه. فردّ عليهم المتظاهرون بعنف، ومع انتهاء النهار كانت شوارعُ بلغراد تعجُّ بدوريات الدبابات العسكرية. فألقى القبض على دراسكوفيتش Draskovic وقُفعت الاحتجاجات.

وعلى ضوء هذا الفشل، توصّل استراتيجيو أوتبور Otpor الصربيون إلى استنتاج مفاده أنّ هدفين أساسيين سييسّران خططهم المستقبلية. ويتمثّل أولهما باستقطاب أقلّه مليون متظاهر إلى العاصمة بلغراد لمواجهة ميلوسيفيتش Milosevic. ويكمن ثانيهما في الحرص على ألاّ يمتثل عناصرُ قوى الأمن الصربية بأوامر إطلاق النار على المحتجين. وفيما سعوا إلى تحقيق هذين

2 إنّ الشرطة التي سُرّبت في العام 2000 من قبل زعيم الحزب الاشتراكي أولكسندر موروز Oleksandr Moroz ، التقت بطريقة غير مشروعة في مكتب كوتشما Kuchma من قبل الحرس الرئاسي ميكولا ميلنيتشكو Mykola Melnychenko ، تُظهر كوتشما Kuchma يصدر أمراً واضحاً بضرورة "التخلص من" غونغادزه Gongadze..

الهدفين ، قررت أوتبور *Otpor* أن تحافظ على مفهوم اللاعنف كأولوية في صفوفها. وتوصل المنظمون الأوكرانيون بدورهم إلى استنتاج مماثل. ففي الواقع، أشار واحد من مهندسي الثورة البرتقالية الأوكرانية الرئيسيين في وقت لاحق:

"في العامين 2002 و2003، أجرينا تحليلاً دقيقاً لأسباب فشل الاحتجاجات السابقة وتوصلنا إلى حصرها في اثنين أساسيين يتمثلان بعدد المشاركين المتدني وبطبيعة الأحداث العنيفة. فأدركنا أننا نحتاج إلى حث أكبر عدد من الأفراد للخروج إلى الشوارع وإلى الحرص على ألا تكتسي الاحتجاجات طابعاً عنيفاً. ذلك أنّ الوحدات العسكرية والوحدات الخاصة لن تتجرأ على رفع سلاحها في وجه مجموعة هائلة من الأفراد". (منسق متمرّس في حزب "أوكرانيا لنا"، مقابلة، 2005) ³ (Senior Our Ukraine coordinator, interview, 2005).

في الحالتين كليهما، شكّل تزوير الانتخابات الفاضح نقطة التقاء حثّت قادة الحراك على استغلالها لتعبئة أعداد هائلة من المواطنين ودفعهم للمشاركة في الاحتجاجات. ونتيجة لذلك، عمدت المعارضة الصربية والأوكرانية إلى بناء استراتيجياتهما الواضحة والصريحة حول فضح نتائج الانتخابات المزورة وتحديها. بعد تزوير ميلوسيفيتش *Milosevic* نتائج الاقتراع في الانتخابات الرئاسية في 24 أيلول/سبتمبر من العام 2000، نظمت المعارضة سلسلة من الإضرابات والحصرات لكن تحرّكات أقوى نشأت بشكل تلقائي. فتصاعدت التوترات لمدة أسبوعين إلى أن أعطت المعارضة ميلوسيفيتش *Milosevic* مهلة تنتهي بحلول الساعة 3:00 مساءً من 5 تشرين الأول/أكتوبر ليقرّ بفوز كوشتونيتسا *Kostunica*، ودعت إلى التجمّع في بلغراد أمام البرلمان الاتحادي. شارك في التظاهرة حوالي 800000 محتج من جميع أنحاء صربيا (مجلة *Nedeljni Telegram* الأسبوعية، 1 تشرين الثاني/نوفمبر، 2000). (*Nedeljni Telegram* magazine, November 1, 2000)

أما في أوكرانيا، فقد بدأت الاحتجاجات في 22 تشرين الثاني/نوفمبر حينما تمّ الإعلان عن الجولة الثانية من الانتخابات الرئاسية وسط مزاعم واسعة النطاق بتزوير الانتخابات لصالح فيكتور يانوكوفيتش *Victor Yanukovych* الذي شغل آنذاك منصب رئيس وزراء ليونيد كوتشما *Leonid Kuchma* واعتُبر خليفته المختار⁴. وكانت المعارضة قد اعترفت باحتمال

³ إن الأفراد الذين لم ترد أسماؤهم في المقال، وافقوا على إجراء المقابلة شرط عدم الكشف عن هويتهم. لذا سيعرّف عنهم بالمناصب العامة التي كانوا يشغلونها في الحكومة الأوكرانية أو في التحالفات السياسية، أو بالمهن التي كانوا يمارسونها.

⁴ حقّق فيكتور يوشينكو *Victor Yushchenko* في الجولة الأولى من الانتخابات، في 31 تشرين الأول/أكتوبر

التزوير قبل موسم الانتخابات بفترة طويلة. ففي نيسان/ أبريل 2003، شدّد تحالف المعارضة الأوكرانية، في مذكرة داخلية صادرة عنه، على أنّ الانتخابات ستكون "أشبه بلعبة من دون قواعد، ومنافسة في الموارد المعلوماتية والمؤسسية والمالية والإدارية لا سابق لها في النظام. نحتاج إلى حلفاء وما يقارب الـ500000 داعم ناشط" (حزب أوكرانيا لنا، مذكرة داخلية، 2003) (Our Ukraine internal memo, April 2003). وكانت حركة بورا (Pora، منظمة الحراك الشبابي المدني تحضّر فعلياً لاحتجاجات تلي الانتخابات عقب موجة اعتقالات واسعة النطاق طالبت نشطاءها في منتصف تشرين الأول/ أكتوبر 2004 (كاسكيف، 2005) (Kaskiv, 2005). إلا أنّ العدد النهائي للحشود في كييف تخطى توقعات المعارضة والنظام على حدّ السواء (زولوتاريوف، ي.، مقابلة، 2005) (Zolotariov, Y., interview, 2005) (Maidan الاستقلال 2005). ففي اليوم الأول، توافد 100000 محتجّ إلى ساحة الاستقلال (Victor Nezalezhnosti المعروفة بـ"الميدان" بُعيد إطلاق قائد المعارضة فيكتور يوشينكو Yushchenko نداءه داعياً إيّاهم إلى الشوارع. وقد تضاعف عددهم على مرّ الساعات الأربع والعشرين التالية. ومع حلول يوم الأربعاء 24 من تشرين الثاني/ نوفمبر، كانت مئات الآلاف من الحشود قد توافدت من أرجاء البلاد كافة، ومع نهاية الأسبوع الأول بلغ عدد الأوكرانيين المجتمعين في كييف حوالي المليون بحسب التقديرات الرسمية⁵ (كاسكيف، 2005) (Kaskiv, 2005).

وقد أدرك الحراكان كلاهما، أنّ عملية تعبئة الحشود السريعة سترفع تكاليف القمع إلى حدّ كبير بالنسبة إلى النظام الحاكم. فيما القمع المستمرّ الذي طُبع استجابة النظام السابقة من ترهيب وتوقيفات وضرب وعمليات اغتيال غامضة، لم ينطو على الكثير من مخاطر الاستجابة العنيفة نسبياً، إلا أنّ حملة كبرى تطال مئات الآلاف من المواطنين تشكّل ضربة قوية تهزّ شرعيتهم

5 فوزاً على فيكتور يانوكوفيتش Victor Yanukovych بفارق ضئيل، مما أدى إلى جولة انتخابية ثانية. وقد بلّغ المراقبون المحليون والدوليون عن حالات من التلاعب والاحتيال على الناخبين واسعة النطاق في خلال الجولتين الأولى والثانية من الانتخابات.

5 رغم أنّ شرطة السير حاولت في البداية اتباع الأوامر القاضية بإيقاف السيارات المتوافدة إلى كييف، إلا أنّ دفع السير الكاسح ورغبة المتقلّبين في البحث عن طرق بديلة لبلوغ العاصمة في خلال الـ48 ساعة الأولى دفعتهم للتخلّي عن جهودهم. ويخبر في هذا السياق أحد الناشطين في منظمة بورا (Pora): "عندما تكون الطرقات الرئيسية مقطوعة، تنفتح أمام الحشود الطرقات الفرعية المؤدية إلى المدينة. ويعمد سكان المنطقة إلى إرشادنا ومساعدتنا". بيز فركا (Bez verkha ، مقابلة، 2005. وقد قدّمت تفسيرات عدة تشرح سبب عدم استخدام كوتشما (Kuchma قوات أكثر فاعلية لقطع طرق الوصول إلى المدينة. إلا أنّ النظام استخفت بتهديد المتظاهرين ورغب في تفادي الأعمال التي من شأنها أن تهدد شرعيته المحليّة والدوليّة على حدّ السواء.

الضعيفة المتزعزعة أصلاً. لذا خُفّت الاعتبارات التكتيكية تأثيراتٍ استراتيجيّةً. فقد عوّلت منظمة أوتبور *Otpor* على قدرتها على سدّ الطرقات الضيقة في بلغراد بالاحتجّين كي تعيق حركة الشعب أو المركبات السريعة. وفي أوكرانيا أيضاً كانت المداخل الخلفية لكيف العاصمة سهلة السدّ والقطع. لذا، بدأ التشديد الأولي على ملء ساحة عامة ورمزية شأن ساحة الاستقلال *Maidan Nezalezhnosti* أمراً ضرورياً فتفاجأت المعارضة نفسها من قدرتها على تحقيق هذا. في كلتا الحالتين، كان حجمُ الحشود الهائلة ليصعب على النظام تفكيك المحتجين وتشتيتهم من دون الانخراط بنشاطات عالية الخطورة، ممّا يزيد إلى حدّ كبير من المخاطر الناتجة عن إصدار أوامر باتّخاذ إجراءات صارمة أو إطاعتها. ولمّا أدرك منسّقو المعارضة الأوكرانيون الحاجة إلى تدفّق أعداد كبيرة من المتظاهرين لحماية ودعم الموجودين في العاصمة، أقدموا على بذل جهود فائقة للتواصل مع سكان كييف والمنطقة المحيطة بها في الفترة السابقة للانتخابات⁶. والواقع أنّ سكان منطقة كييف تكفّلوا بمهمة تصعيد الاحتجاجات السريع في المدينة على امتداد الساعات الـ 48 التي تلت دعوة يوشينكو *Yushchenko*. وقد طُبعت الاحتجاجات التي طالّت أكثر من ثلاثة أسابيع، بالتركيز الدائم والمستمرّ على "احتساب الأرقام". (مجلة غاردين *Guardian*, 13 أيار/ مايو، 2005). (*Guardian*, May 13, 2005).

إضافة إلى ذلك، عمد قادة المعارضة إلى وضع كاميرا تبتُّ بئاً حياً مباشراً لـ 24 ساعة في اليوم من ساحة الميدان إلى القناة الخامسة المؤيدة للمعارضة. وأثبت هذا التكتيك فعاليته العالية في توليد مثبتات تحول دون اتخاذ إجراءات صارمة ضد المخيمات في المساء حينما تكون الحشود تضاعلت عدداً. وفي هذا السياق، يذكر وزير خارجية أوكرانيا السابق بوريس تاراسيوك *Boris Tarasyuk*، صاحب هذا التكتيك: "كانت الاحتجاجات تواجه المخاطر، لذا اقترحتُ على القناة الخامسة وضع كاميرا بئاً مباشراً في ساحة "الميدان" ليلاً بحيث يراقبُ الناسُ الأحداث ويتنبّهون فوراً لما يحصل في حال وقوعه" (تاراسيوك *Tarasyuk*، مقابلة، 2005).

(*Tarasyuk*, interview. 2005). وشكّلت هذه الخطوة على حدّ تعبير أحد الدبلوماسيين الغربيين، "الورقة الرابحة النهائية" وأرسلت رسالةً واضحةً: "تعالوا ونالوا منا، إنما في حال استخدمتم العنف ضدنا وألحقتم بنا الضرر، ستكون الأحداث منقولةً حياً على شبكة سي إن إن"

⁶ لقد آمنوا أيضاً أنّ جمع أكبر عدد من الشعب الأوكراني "يتطلّب ضرورة إخراج سكان العاصمة إلى الشوارع" (ستيتسكيف، مقابلة، 2005) (*Stetsktiv*, interview, 2005).

(دبلوماسي غربي، مقابلة، 1 حزيران/ يونيو 2005) (Western Diplomat, interview, 1 June 2005)
7 . 2005)

رغم ميزاتها وحسناتها تبقى الحشود الكبيرة تشكّل خطراً محتملاً لكلّ من الحراكين الصربي والأوكراني. إذ أدرك رجال الشرطة أنهم مسؤولون عن السلامة العامة وأنهم سيتحمّلون العقبان في حال نشبت الفوضى. لقد تعلّم المنظّمون من حالات الفشل السابقة أنّ اندلاع الأعمال العنيفة من شأنه أن يُشعل غضب قوى الأمن ضدّهم⁸. ويشير جين شارب Gene Sharp، أحد المنظرين في الصراعات اللاعنفية، أنّ "الحشود الكبيرة غير القادرة على الحفاظ على الانضباط اللاعنفية قد تضعف الحراك". ويضيف من جهة أخرى، "أنّ هذه الأخيرة تصبح منيعة متى توافرت المعايير الضرورية والانضباط المطلوب" (شارب Sharp، 1973) (Sharp, 1973). لذا، كان من الحاسم تفادي الأنشطة الاستفزازية غير الضرورية وعدم تكرار فترات العنف المؤقتة السابقة. من هنا، عمد الحراكان الصربي والأوكراني إلى تبني أولوية طارئة تميّزت في الحفاظ على الانضباط اللاعنفية، ونظّمت برامج تدريبية تعدّ المتطوعين للحظات المواجهة المحتملة مع رجال الشرطة وعناصر الجيش.

في أوكرانيا، اكتست مبادرة تجنّب العنف طابعاً مهماً للغاية في المواجهة الجماعية التي دامت ثلاثة أسابيع خلال الثورة البرتقالية. وبغية تفادي المشادات بين المحتجين ورجال الشرطة، أو بين مناصري يوشينكو Yushchenko ومؤيدي يانوكوفيتش Yanukovych، شكّل متطوعون من بورا Pora ومن حزب "أوكرانيا لنا" Our Ukraine "مناطق حيادية بشرية" تفصل الحشود عن رجال الشرطة وعن خيم الحشود المعادية لها. وأقدم متطوعون متمرّسون على القيام بدوريات في معسكرات الخيام وبين الحشود بحثاً عن الاضطرابات المحتملة. وتم

7 لقد ذكر هذا الفرد أيضاً غياب البث التلفزيوني الحيّ كـ"عامل حاسم" في المنبحة التي حصلت في ميدان تيانانمين Tiananmen Square في الصين (دبلوماسي غربي، مقابلة، 1 حزيران/ يونيو 2005) (Western Diplomat, interview, 1 June 2005). ومن المنطلق نفسه، أشار مارتن Martin وفارني Varney إلى أنّ "النقص في تقديم المعلومات حول المذابح للجماهير الخارجية" شكّل عقبة حالت دون توليد دعم دولي لحركة المقاومة في تيمور الشرقية في الثمانينيات من القرن الماضي. إلا أنّ عكس ذلك، حصل في خلال الحركة الشعبية الناجحة في إندونيسيا للإطاحة بالزعيم العسكري الجنرال سوهارتو Suharto، حيث أقدم المتظاهرون على رفع لافتات تقول "ضعي أحمر الشفاه. فقد تظهريين على قناة CNN الليلة". (مارتن Martin وفارني Varney، 2001، صفحة 24-31)

8 أعلن أحد القادة الأوكرانيين في تموز/ يونيو 2005 "إنّ تجنّبنا استفزازهم تجنّباً تاماً وفعالياً وعدم لجؤنا إلى ممارسة العنف مهم للغاية. فقد كانت أعمالنا محض سلمية. إذ تعلّمنا الدروس المريرة من العام 2000". (فيلنكو Filenko، مقابلة، 2005).

توزيع منشورات تنص على التالي: "تفاد الاستفزاز. سننتصر. نحن أقوىاء لأننا هادنون" (فيلنكو Filenko ، مقابلة ، 2005). (Filenko, interview, 2005) وقد خلّفت هذه الخطوات كلّها على ما يبدو تأثيراً على الشرطة والعسكريين. ففي حزيران/ يونيو 2005 صرّح أحد كبار ضباط قوى الأمن في مقابلة له: "أكنّ احتراماً كبيراً للجهد الذي بذله فريق يوشينكو Yushchenko للحوّل دون وقوع أيّ نوع من الأعمال العنيفة. لم يبدوا عنيفين. كانت مبادرتهم رائعة" (ضابط كبير في قوى الأمن، مقابلة، 2005) (Senior law enforcement official, interview, 2005). ففي بعض الحالات، كان هذا يعني تقييد العناصر الأكثر تشدداً في الائتلاف السياسي التي تُعرف بـ "الدم المطلوب" (صحيفة سيغودنيا Segodnya ، 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 2005). (Segodnya, November 21, 2005) .

ففي الواقع، شكّل قرارُ البقاء لاعنفيين عنصراً أساسياً في الحسابات الاستراتيجية التي قام بها قادة الحراك في صربيا وأوكرانيا. فالاستراتيجيون الخبراء في هذا المجال، لطالما أكّدوا أنّ الأساليب اللاعنافية توفّر ميزةً استراتيجيةً في ظلّ الظروف غير المتكافئة فتسمح بالتالي للنشطاء بأنّ يعارضوا سلطة الخصوم بمن فيهم رجال الشرطة وعناصر الجيش، ليس بالأسلحة التي يختارونها بل بأساليب مختلفة للغاية (شارب Sharp ، 1973) . وقد شدّدت برامجُ التدريب الصربيةً على عنصر استراتيجية المجموعة هذا في جلساتها مع متطوعي أوتبور Otpor في العام 2000. وتنبّأ أحدُ منسقي مجموعة بورا Pora الأوكرانية هذه الحجةً تنبئياً كلياً فأشار إلى أنّ النهج اللاعنفي سمح للحراك باعتماد سلوك جعله "على قدم المساواة مع سلطات الدولة. إنّ لم نتوسّل العنف نستطيع أن ننافسهم. لو توسّلنا العنف كانوا ليلجأوا إلى القوة. كان اللاعنف إذاً الاستراتيجية الوحيدة الفاعلة ضمن البيئة الحالية" (زولوترايوف Zolotaryov ، مقابلة ، 2005) (Zolotaryov, interview, 2005). فالتشعباتُ المحليّة والدوليّة المتأنيّة عن أعمال عنف وقمع ضدّ مدنيّين سلميّين، تحلّف تأثيراتٍ قاسيةً أكثر من التدابير المماثلة المتخذة بحقّ من يُعتبرون إرهابيين⁹.

"كسر العصا وقلب الأدوار"

في نهاية المطاف، أقرّ قادة الحراك أنّ القيادة العليا في النظام قد تترتأي بأنّ تكلفة المساواة تتخطى من بعيد تكلفة القمع العنيف. في صربيا، كان ميلوسيفيتش Milosevic ليتكبّد خسارات

⁹ قد يأخذ المرء بعين الاعتبار، على سبيل المثال، اللوم الذي وضعه نظام كريموف Karimov على منظمة حزب التحرير الإسلامية بعد مذبحه أنديجان الأوزبكية في أيار/ مايو 2004.

سياسيةً وشخصيةً كاسحةً لو سمح بانتصار المعارضة. وفي أوكرانيا، على الرغم من أن كوتشما Kuchma كان سيترك الرئاسة إلا أن عددًا من أعضاء حكومة النخبة المناصرين له كان ليتكبّد خسائر فادحةً جرّاء انتصار يوشينكو Yushchenko، فباتوا يشكلون خطراً بالغاً إذ مساءلتهم الرسمية ليست بواسطة النطاق.

وقد حاولت الدولة في البلدين أن تُطلق أعمال عنف ضدّ المحتجّين. ففي بلغراد، بعد فشل القنابل المسيلة للدموع في تشتيت الحشود خلال تظاهرات أوتبور Otpor في 20 تشرين الأول/أكتوبر 2000 ، تلقى رجال الشرطة الأوامر بإطلاق النيران عليهم. وفي أوكرانيا، رغم أن كوتشما Kuchma نفسه رفض إعطاء الأوامر بمواجهة الثورة البرتقالية، صدرت أوامر من مكتب قيادته في نهاية الأسبوع الأوّل من الاحتجاجات قضت بتعبئة 10000 من قوى الأمن الداخلي في محيط كييف وبتوزيع الذخائر الحية عليهم (مجلة نيويورك تايمز *New York Times* ، 17 كانون الثاني/يناير 2005). لذا، تجلّت ضرورة أن يحاول الحراك تفتيت فعالية الأدوات القمعية التي يتوسّلها النظام. ويعلّق في هذا السياق أحد المراقبين الغربيين للثورة البرتقالية شارحاً مجرى الأمور بوضوح وإيجاز: "ماذا تفعل لو حاولت استخدام عصا فانكسرت في يدك؟" (دبلوماسي غربي متمرس، مقابلة، 31 أيار/مايو 2005 (Senior Western diplomat, interview, May 31 2005).

القوات المسلّحة

لطالما استندت الحكومات الاستبدادية إلى دعم القوى العسكرية الوطنية لـ"تهدئة" تحديات الحشود التي تهدّد حكمها (هلفي Helvey ، 2000) (Helvey, 2000). ففي العام 1989، قام جيش التحرير الشعبي بقطع الساحة بالدبابات وأطلق النار على الطلاب في ميدان تيانانمن Tiananmen. وفي العام السابق، قامت وحدات الجيش في بورما Burma بقمع الانتفاضات التي تلت عملية الاستفتاء في البلاد. ومنذ فترة قريبة، شوهدت قوات الجيش والمركبات العسكرية إلى جانب الشرطة والمخابرات في أوزبكستان خلال حملة القمع الدموية في أنديجان. (مجلة نيويورك تايمز *New York Times* ، 17 حزيران/يونيو، 2005). (*New York Times*, June 17, 2005)

أما في أوكرانيا وصربيا حيث استثمرت قيادات النظام بشكل متزايد في تعزيز قوى الأمن الداخلي على حساب القوات العسكرية، فتعلّى منظمو الحراكين بثقة أكبر في إقناع الجنود

العسكريين بأن يبقوا أقله على الحياد¹⁰. والواقع أنّ التجنيدَ على الصعيد الوطني في البلدين يعني أنّ غالبية الجيش تتألف من مجندين صغاراً نسبياً ظلّوا على اتّصالٍ بأصدقائهم وعائلاتهم وتأثّر انتماؤهم السياسي في الغالب بميول أقرانهم المدنيين السياسية. ففي أوكرانيا، عملت الحملة بشكل مكثّف مع عائلات الجنود العسكريين الفاعلين والمتمركزين في مدن-تكتات كي تبني شبكة اتصالات وتواصل وتقيّم الآراء إذ إنها تُسلّم بأن "أفراد الأسرة يشكلون مقياساً جيداً" (Antonets ، مقابلة، 2005). وبفضل الروابط المتينة التي تصل أفراد الجيش بعامّة الشعب، جاء الكثير من رسائل المعارضة الأوكرانية والصربية الموجهة للجيش كانعكاس للرسائل الموجهة إلى باقي أفراد المجتمع المشددة على الإصلاحات الديمقراطية وعلى القومية وعلى التطور والانتقال من حالة الفساد القائمة.

إلا أنّ بعض الرسائل الأساسية كانت مصممة خصيصاً للأفراد المنخرطين في القوات المسلحة. وفي كلا البلدين، تراجعت أحوال القوات العسكرية وظروفها في السنوات الأخيرة (Kuzio, 2000) (كوزيو Kuzio ، 2000). فأفراد الجيش الصربي بخدمة ميلوسوفيتش Milosevic كانوا يشعرون بأنهم ينالون تقديراً أدنى من نظرائهم في قوى الأمن الداخلي، على عكس ما كان يتمتّع به الجيش الشعبي اليوغوسلافي في ظلّ حكم تيتو Tito. وفي أوكرانيا، أدى اقتطاع الميزانية الوطنية على مرّ السنوات الخمس عشرة الماضية إلى خفض أجور أفراد الجيش وتدني حجم التدريبات المحلية وتراجع معنوياتهم مقارنة بنظرائهم في وزارة الداخلية. (فاينانشال تايمز *Financial Times* ، 25 تشرين الثاني/ نوفمبر 2004) (*Financial Times*, November 25, 2004). وتُظهر التقديرات بأنّ أكثر من 80 في المئة من ضباط الجيش يصفون ظروفهم المعيشية وعائلاتهم على أنها "أدنى من المتوسط" أو "متدنية" (غريتسينكو Grytsenko ، 2000) (Grytsenko، 2000). لذا استغلّت المعارضة السياسيّة هذه المشاعر على امتداد الحملات الانتخابية الرئاسية، فشددت على الحرمان النسبي واقترحت تدابير لمعالجته¹¹. و قد شدّد تحالف أوكرانيا لنا Our Ukraine تحديداً على قضايا متعلقة بالأفراد

¹⁰ في أوكرانيا، ربما تكون عمليات التواصل الوثيقة وبرامج التدريب بين الجيش الأوكراني وبرنامج الشراكة من أجل السلام التابع لمنظمة حلف شمال الأطلسي وبرنامج التعليم والتدريب العسكري الدولي (IMET) التابع للولايات المتحدة قد ساهمت بشكل جيّد في تعزيز المشاعر المؤيدة للديمقراطية لدى القوات المسلحة.

¹¹ فعلى سبيل المثال، علّق العقيد المتقاعد دراغان فوكسيتش Dragan Vuksic في نيسان/ أبريل من العام 2000: "إنّ سلوبودان ميلوسيفيتش Slobodan Milosevic فضّل الشرطة، معتقداً أنها ستحلّ كلّ مشاكله. لكنه أدرك العكس في كوسوفو Kosovo. فهو لم يكن يثق بالجيش اليوغوسلافي. ثمّ قام ببعض التغييرات الشخصية.... فعين بعض المسؤولين العسكريين المخلصين في مناصب عليا، فقاموا بعمليات التطهير المناسبة. وبات الآن يفصّل

العسكريين، شأن رواتب التقاعد وحقوق أسرهم في محاولة منه للحصول على أصوات الجنود الأوكرانيين وقدامى المحاربين (أنتونيتس Antonets ، مقابلة، 2005) (Antonets، interview، 2005).

إضافة إلى برامج الحملات التقليدية، كان الحراكان يحتاجان إلى معالجة قضايا تكتسي أهمية إستراتيجية نسبة إلى النضال الغير القانوني في سبيل السلطة النامي في كلا البلدين. في صربيا ما بعد الحرب، كانت خلفية حملة قصف الناتو (حلف شمال الأطلسي) ثمرة واضحة لجهود ميلوسيفيتش Milosevic في تشويه سمعة المعارضة. وكانت منظمة أوتبور *Otpor* تخشى من أن النظام سيستغل حلسية الجيش تجاه هذه القضية فيصوغ أوامره القمعية مصوراً المتظاهرين على أنهم مرتزقة عنيفين يمهّدون الطريق لغزو الناتو للبلاد.

ونتيجة هذا الاحتمل، تمحورت الرسالة الموجهة إلى العسكريين حول فكرة مفدها أن المعارضة ليست "باطبور الخمس" بل هي في خدمة الشعب الصربي لا الحزب الحاكم¹². وكي تواجه اتهامات النظام المترابدة لها بلخينة أقدمت أوتبور *Otpor* على إدانة حملة القصف التي شنّها حلف شمال الأطلسي مسلطة الضوء على مسؤولية ميلوسيفيتش Milosevic فيها. فعلى سبيل المثال، في 22 آذار/ مارس 2000، استرجعت أوتبور *Otpor* الذكرى السنوية لبدء القصف بملصقات كتبت عليها "مقاومة عدوان الناتو". كذلك لجأت إلى تفويض قاعدة ميلوسيفيتش Milosevic القومية فدعت جنود احتياطي الجيش الذين شاركوا في الحرب ليلقوا خطابات في التجمعات والمسيرات يدينون فيها ميلوسيفيتش Milosevic لأنه "خان كوسوفو".

والمواقع أنّ القيادة السياسية لتحالف المعارضة الصربية شملت عماديين متقاعدَيْن أحدهما الجنرال مومتشيلو بيريسيتش Momcilo Perisic ، الذي كان قد شغل منصب قائد الجيش الصربي بين الأعوام 1992 و1998 ، فنجحت بالتالي في تعزيز مصداقية *Otpor* أوتبور¹³. ومع ذلك، على الرغم من هذه الروابط، لم تعتمد المعارضة مطلقاً إلى إجراء اتصالات مع قادة

الجيش". (مجلة فريم *Vreme* الأسبوعية ، 22 أبريل / نيسان 2000).
12 استُخدمت هذه المقاربة في أوكرانيا حيث ردّ المحتجون نشيداً شائعاً "الجيش يدعم الشعب". وتردّد كذلك صدى هذه التصريحات بين صرخات المدنيين الروسين الذين يتحدّون الدبّابات في خلال انقلاب العام 1991. (أكرمان Ackerman ودوفال Duvall ، 2000، صفحة 14).

13 شرّح الجنرال مومتشيلو بيريسيتش Momcilo Perisic، قراره بالانخراط في السياسة مبرراً: "الجيش اليوغوسلافي ليس جيش الحزب الحاكم. إنها مؤسسة الدولة التي تحمي مصالح المواطنين والوطن. لذا قررت أن أصبح ناشطاً سياسياً وأن أمنع استغلال الجيش" (مجلة نيزافيسنا سفيتلوس *Nezavisna Svetlost*، 8 تموز/يوليو 2000).

الجيش، ولم تتلق مطلقاً أي ضمانات بعدم تدخّل الجيش في حالة الاحتجاج الجماعي¹⁴. وفي نهاية المطاف، على الرغم من أن الجيش الصربي حشد قواته في ضواحي بلغراد، إلا أنّه لم يقدّم على أيّ محاولة جديدة لبلوغ وسط المدينة¹⁵.

أما في أوكرانيا، فعمدّت نخبة المعارضة إلى التواصل المباشر مع ضباط الجيش كهدف أساسي وحيد لها. فانطلقت جهودهم في ديسمبر/كانون الأول 2002 عندما انضمّ قائد القوات الجوية الأوكرانية المتقاعد الجنرال فولوديمير أنتونيتس Volodymyr Antonets، إلى صفوف المعارضة منهياً حياته المهنية في السلك العسكري على مضض¹⁶. وشكّل أنتونيتس Antonets فرقةً من المتطوّعين الذين عملوا على استهداف قوى أمن الدولة على وجه الخصوص. وبما أنهم عسكريين متقاعدين، سهّل على فريق أنتونيتس Antonets التواصل مع الضباط المتوسطي الرتب، وعائلاتهم والمقاتلين القدامى. وقد عمد أفراد الفرق المنطوقية المنتشرة في أرجاء أوكرانيا كافة إلى "بناء شبكة تواصلٍ كلٌّ على مستواه ينقلُ عبرها المعلومات" إلى الجنرال أنتونيتس Antonets (أنتونيتس Antonets، مقابلة، 2005) . (Antonets, interview, 2005) .

وفي أكتوبر/ تشرين الأول 2004، "توقّع الفريقُ أنّ إدارة كوتشما Kuchma لن تستلم أبداً من دون نضال وأدرك أنّها ستلجأ إلى السلاح"، عمدَ عندئذٍ إلى نقلٍ طيبة عمله ليحضر فعلياً للنضال المقبل. فاستدعى شبكة المعارف التي كان يبيها على مرّ الأشهر الـ18 الماضية ومجموعة الرفاق الداعمين له، للانخراط في النضال. ويوضّح أنتونيتس Antonets: "لرفيقي أصدقاء ومعارف أكثرهم كانوا قادة وحدات عسكرية فرعية. كانت أولويتنا أن نبدأ

14 علّق زوران دينديتش Zoran Djindjic لاحقاً: "رغم أنّ الجنرالين بيريزيتش Perisic وأوبرادوفيتش Obradovic (قائدي المعارضة) بذلا جهداً، إلا أننا لم نتمكن من اكتشاف ما كانت ميول الجيش الحقيقية حتى قبل أيام قليلة من الخامس من أكتوبر/ تشرين الأول." (مجلة فيريم Vreme، 2 تشرين الثاني/نوفمبر 2000).

15 إنّ أحد مؤلفي هذا المقال، إيفان ماروفيتش Ivan Marovic، تمّ تجنيده في الجيش بتاريخ 9 أيلول/سبتمبر، أي قبل أسبوعين من إجراء الانتخابات. ومع حلول نهاية 5 أكتوبر/تشرين الأول، اختفى جميع العناصر المنخرطين في وحدته. وفي المساء، كان الجنود يناقشون الخطوة التي يجدر بهم اتخاذها فاقتراح بعضهم: "علينا أن نتخلّى عن أسلحتنا ونذهب إلى بلغراد للانضمام إلى الاحتجاجات"، واقترح آخرون "يجب أن نحتفظ بأسلحتنا وننضمّ إلى الاحتجاجات". وفي صباح اليوم التالي، أعلن بعض المسؤولين أن الحكومة الجديدة تبوّأت السلطة وأنّ الجيش سيُجند عن السياسة. وقبل ذلك، اقترب أحد صغار السن من ماروفيتش Marovic، وصافحه قائلاً: "مبروك، لقد فزت". وبالتالي اكتشف المؤلف أنّ ميلوسيفيتش Milosevic قد أطيح.

16 تقاعد أنتونيتس Antonets، من الجيش في العام 1999 بعد أن أعاد كوتشما Kuchma تشكيله "في منصب ما كان ليُقبل به أبداً". كان على خلاف مع كوتشما Kuchma بسبب بيع الطائرات العسكرية الأوكرانية لشركات طيران تجارية.

الحراك من أسفل الهرم إلى أعلاه بحيث تفهم القيادة العليا استحالة تنفيذ أوامر كوتشما Kuchma لأنّ الأفراد في المستويات الأدنى لن يدعموا أوامر استخدام الأسلحة (أنتونيتس Antonets، مقابلة، 2005) (Antonets, interview, 2005).

في الواقع، تم التوصل إلى سلسلة من الاتفاقات غير الرسمية من خلال صفوف القوات المسلحة الأوكرانية المتوسطة والمتوسطة-العليا. ونتيجة لتلك المفاوضات، وافق ضباط الرتب المتوسطة على عدم استخدام القوة لقمع المحتجين مهما كانت الظروف. وفي حال حاول النظام استخدام الشرطة أو القوات الخاصة لممارسة تكتيكات عنيفة ضدّ المدنيين تتدخل القوات العسكريّة عند الضرورة وتؤدي دور الوسيط.

وفي ليلة 28 تشرين الثاني/أكتوبر، عندما تلقت وحدات القوات الخاصة في وزارة الداخلية الأمر بالتحرك والتعبئة خارج كييف، دخلت هذه الاتفاقات حيّز التنفيذ. إذ قام أفراد من هذه القوات الخاصة المتعاطفون مع المعارضة بإبلاغ قيادة حزب أوكرانيا لنا Our Ukraine بهذه الأوامر ما إن بدأت التعبئة (كبير منسقي منظمة "أوكرانيا لنا" Our Ukraine، مقابلة، 2005). وفي غضون ساعة اتصلوا بالسفارات الغربيّة واتصل رئيس الأركان في الجيش الجنرال أولكسندر بيتروك Olexander Petruk، بدوره بوزارة الداخلية وهُدّد بنشر عناصر من الجيش الأوكراني العزّل بين قوات وزارة الداخلية والمتظاهرين. (Uk-rayinkska ، أبريل/نيسان، 2005).

يستعيدُ دبلوماسي غربي انخرط في الدعوات لمحاولة ثني وزارة الداخلية عن أعمال العنف، ما حصل فيخبز " خلدتُ إلى النوم وأنا أظنّ أننا أحدثنا فرقاً. لكنني استيقظتُ في الصباح على خبر الدعوة التي أطلقها قائد الجيش. دعوة الجيش كانت العنصر الأكثر حسماً" (دبلوماسي غربي متمرس، مقابلة، 7 حزيران/ يونيو 2005) (Senior Western Diplomat, interview, 7 June 2005).

الشرطة المحليّة

في صربيا وأوكرانيا على حدّ السواء، شكّلت الشرطة المسيّسة للغاية تهديداً فعلياً لنشاطات الحراك أكبر من تهديد قوات الجيش الوطني. ذلك أنّها تُعدُّ هيئاتٍ مهنيّة ذات تفويض دستوري لحماية النظام العام والحفاظ عليه، إلا أنّ هويّات قواها كانت قريبة للغاية من سلطة النظامين الحاكمين. ففي أيار/ مايو من العام 2004، على سبيل المثال، أعلن رئيسُ وزارة الداخلية الأوكرانية ميكولا بيلوكون Mykola Bilokon في اجتماعٍ له مع مرؤوسيه الإقليميين: "رغم

افتراضنا بأن قوى الشرطة المعروفة بالميليزيا *milizia* يجب أن تتأى عن السياسة" ، باعتبارها "الهيئة الحكومية المسلحة". إلا أننا سندعم الحكومة وسنبرج الجولة الأولى من الانتخابات وسنشر نخب الانتصار لثلاثة أيام متتالية" (لجنة الناخبين الأوكرانيين، أيار/ مايو 2004). وبحسب أحد المسؤولين في وزارة الداخلية الأوكرانية "صدرت أوامر فعلية قبل الانتخابات تقضي بالتصويت لصالح مرشح الحكومة فيكتور يانوكوفيتش Victor Yanukovych. (مسؤول في وزارة الداخلية مقره في كييف، مقابلة، 2005، Kiev-based Interior Ministry officer, interview, 2005). أما في صربيا، فنشر ميلوسفيتش Milosevic الشرطة المحلية في كوسوفو في العام 1999 وما إن رجع رجالها طلب منهم بأن يقيموا تظاهرات حركة أوتبور *Otpor* مستخدمين القوة استخداماً مفرطاً. وتمثل جزء من دعم الرتب الدنيا للقيادة الحكومية بأساليب التقليل العقائدي التي يتوسلها النظام. وقد "ظهرت" في مراكز الشرطة الرئيسية في أوكرانيا، أشرطة فيديو خلال الحملة الانتخابية، توثق بشكل فاضح الاحتقار العنيف الذي تكته المعارضة حيال الشرطة ورغبتها في "تدمير" المرشح المؤيد لكونتشما يانوكوفيتش ¹⁷ Kuchma Yanukovych. وقام أحد الصحفيين الذين شاهدوا هذا الشريط بمقارنة محتواه بكتاب "دقيقتان من الحقد" لجورج أوريل الصادر في العام 1984 (صحافي في القناة الخامسة، مقابلة، 2005). في كلا البلدين، حاول ممثلو الحكومة أن يشككوا في مصداقية الطلاب النشطاء من خلال تصويرهم علانية كـ "إرهابيين" أو "مدمنين على المخدرات" (زولوتاريوف Zolotariov ، مقابلة، 2005).

لذا تجلّت الحاجة أمام الحراكين لتقويض موثوقية النظام وإقناع قوى الشرطة والحيش بشرعية قضيتهم. واتخذت حركة أوتبور *Otpor* قراراً شكلياً باعتماد علامة القضية المشدودة والقمصان السوداء. والهدف من ذلك، أن يبدو الثوار خطيرين إنما غير عنيفين بغية خداع كبار المسؤولين في الحكومة وتزويد رجال الشرطة بالمعلومات الصحيحة في الوقت نفسه 18. وقد استراتيجيو

17 تمّ تسريب الأشرطة إلى القناة الخامسة من قبل رجل شرطة وعرضت فيما بعد من قبل المحطة "تظهر أنهم كانوا يحاولون غسل أدمغة عناصر الشرطة واستغلالهم." (صحافي من القناة الخامسة، مقابلة، 2005).

18 أملت منظمة أوتبور *Otpor* أن تزج هذه الصورة تحديداً ميراجانا ماركوفيتش Mirjana Markovic ، زوجة ميلوسفيتش Milosevic وقائدة اليسار اليوغوسلافي. وسرعان ما أظهرت البيانات الصحفية الصادرة عن اليسار اليوغوسلافي أن أثر الصورة التي تبنتها أوتبور *Otpor* فاق كل التوقعات. ففي الواقع، صدرت وثيقة واحدة عن مديرية التحليلات تشبه بمضمونها البيانات الصحفية الصادرة عن اليسار اليوغوسلافي: " بأسلوب لبسهم (قبعات وأوشحة سوداء ، سراويل وقمصان سوداء) كان أعضاء هذه المنظمة يشبهون الماضي المظلم تحديداً الأيديولوجية النازية التي ألحقت بهذه الأمة كماً هائلاً من المعاناة والشر. ("معلومات عن الأنشطة غير المشروعة للمنظمة الإرهابية الفاشية أوتبور *Otpor* " ، مديرية التحليلات، وزارة

حركة أوتبور *Otpor* أنّ النظامَ كان ليرسلَ رجالَ الشرطةَ يعتقلون أفرادها لو ظلَّ أنها منظمة ثورويّة¹⁹. وبما أنّ حركة أوتبور *Otpor* التزمت بطبيعتها اللاعنافية البحتة وطالبت بالانتخابات كوسيلةٍ شرعيّةٍ للتغيير، تأملت بأن يحظى الشرطيون خلال التحقيقات بمعلومات مختلفة عن تلك الملقنة لهم وبشروعوا بالتالي يشككون بدوافع الحكومة.

والواقع أنّ الاستراتيجيةَ لاقت نجاحاً على نطاق واسع للغاية. فتزايدت أعدادُ المعتقلين من أوتبور *Otpor* فيما توسّعت الحركةُ وباتت اتهامات الحكومة أقلَّ مصداقية خصوصاً بعد 2 أيار/ مايو 2000 حينما تعرّض ثلاثة نشطاء من أوتبور *Otpor* للضرب العنيف المبرح في مدينة بوزاريفاتش *Pozarevac* مسقط رأس ميلوسيفيتش *Milosevic* من قبل أصدقاء ابنه ماركو واعتقلوا فيما بعدها واتّهموا بمحاولة قتل.

بعد جريمة قتل مسؤول في الحزب الاشتراكي في نوفي ساد *Novi Sad* بتاريخ 13 أيار/ مايو، استغلَّ النظامُ الحدثَ ليُتهمَ أوتبور *Otpor* ويصفها بمنظمةٍ إرهابيةٍ ويُحمّلها مسؤولية الجريمة²⁰. ونتج عن ذلك، اتخاذ إجراءات صارمة حادة بحق أوتبور *Otpor*. وفي الشهور القليلة التالية، أُلقي القبضُ على آلاف النشطاء في أوتبور *Otpor* بشكل عشوائي واعتقلوا. ومن المفارقات، أفضت هذه الإجراءات إلى تسهيل التواصل بين حركة أوتبور *Otpor* ورجال الشرطة²¹.

ومع حلول موعد الانتخابات في 24 أيلول/ سبتمبر، كان أفراد الشرطة الصربية باستثناء كبار الضباط ملّمين بهوية أوتبور *Otpor* وغاياتها ووسائلها أكثر من المدنيين العاديين. أما أوتبور *Otpor* فكانت تتلقّى المزيد من المعلومات حول طباع الشرطة ومزاجها بعد كل عملية اعتقال واحتجاز.

الداخلية، بلغراد، 7 حزيران/ يونيو 2000).

19 إنّ الجنرال فلاستيمير جورديفيتش *Vlastimir Djordjevic*، رئيس الأمن العام، ومساعد وزير الداخلية أمرَ الشرطة "بتحديد هوية أعضاء" أوتبور " *Otpor*، وجمع البيانات حول أعدادهم، ونواباهم، ومبادراتهم، وتحركاتهم وأنشطتهم الأخرى، وبارسال جميع المعلومات إلى مديرية الشرطة. " (التعليمات رقم 2000/33 الصادرة في 11 أيار/مايو 2000 عن الجنرال فلاستيمير جورديفيتش *Vlastimir Djordjevic*، وزارة الداخلية).

20 توصلت معظم المصادر التي بلغت عن هذا الحدث إلى استنتاج مفاده أن جريمة القتل جاءت نتيجة نزاع داخلي.
21 أفاد القانون الدولي الإنساني من بلغراد أنّ عمليات اعتقال واسعة النطاق بين 2 أيار/ مايو و 24 أيلول/سبتمبر طالبت أكثر من 2000 ناشط في أوتبور *Otpor*، وحوالي 400 عضو من أحزاب المعارضة وحوالي 100 ناشط من المنظمات غير الحكومية. والواقع أنّ 300 ناشط من أوتبور *Otpor* اعتقلوا خمس مرات أو أكثر. أضف إلى ذلك أنّ نسبة 10 في المائة من المعتقلين (ما يوازي الـ200) كانوا تحت سن الـ18 (مقتبس من " حملة الشرطة العنيفة على أوتبور *Otpor* في صربيا، من 2 أيار/مايو إلى 24 أيلول/سبتمبر 2000"، تقرير القانون الدولي الإنساني، بلغراد، 23 تشرين الثاني/نوفمبر 2001).

ومن جهتها، قامت حركة المجتمع المدني الأوكراني ، بورا *Pora* ، برفع نسبة الاعتقالات للتواصل مع أفراد قوات الشرطة ولو على نطاق أصغر من نظريتها الصربية. ففي خلال العطلة الصيفية، ألقى القبض على نشطاء من الطلاب في التجمعات وبعد توزيعهم لمصقات ورسائل إخبارية للمعارضة وأخضعوا نتيجة لذلك إلى الاستجواب (صحيفة *Kiev Interfax*، 5 آب/ أغسطس، 2004) (*Kiev Interfax*, August 5, 2004). وفي تشرين الأول/ أكتوبر اعتقل النظام أكثر من 150 ناشطاً واستجوبهم ورفّع خمس عشرة قضية جنائية بحق أفراد من بورا *Pora* بتهم إرهابية. وشكلت كل عملية اعتقال فرصة للتواصل مع رجال الشرطة (Kaskiv, interview, 2005) (كاسكيف *Kaskiv* ، مقابلة، 2005) 22. وقام النشطاء في منظمة بورا *Pora* بزيارة مخافر الشرطة في أرجاء أوكرانيا كلها وقدموا الورود لرجال الشرطة ووزّعوا عليهم الرسائل وطلبوا من الضباط أن يحترموا القانون (كبير المنسقين في حزب "أوكرانيا لنا"، مقابلة، 2005) (Senior Our Ukraine coordinator, interview, 2005).

اجتمعت عوامل عدة وجاءت لصالح استراتيجيات المنظمّتين. بما أنّهما تألفتا من مجموعة كبيرة من الشباب، فإن اتهامات الحكومة بالإرهاب تبدو أقلّ مصداقية. والواقع أنّ الحفاظ على الانضباط الصارم اللاعنف من قبل الشباب، الذي تم تطبيقه داخلياً في المنظمات، قد عزز هذا الخلاف. فقد استغلّت المنظمتان كلاهما روح المرح للتشديد على هذه النقطة: فعمدت أوتبور *Otpor* إلى تقديم أعضائها علناً من المراهقين كإرهابيين "نموذجيين"، بينما تظاهر نشطاء بورا *Pora* بالليمنون عندما اتهموا بتخزين القنابل اليدوية (انترفاكس *Interfax* أوكرانيا، 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 2004) (*Interfax Ukraine* November 28, 2004). (للحصول على المزيد من المعلومات حول استخدام المرح من قبل المنظمات الأهلية الشبابية راجع كوزيو *Kuzio* حول هذه القضية). أخيراً ، تعني الهياكل التنظيمية الفضفاضة والمقترنة بالتركيز على المبادرات المحلية، أنّ الاحتجاجات تتولّد في آن واحد وتنتشر على الصعيد الوطني ممهدة الطريق للنضال الأخير، لذا استحال على النظام إرسال وحداته الأكثر ولاءً والأكثر وحشية لمواجهتها.

تجدر الإشارة إلى أنّ أوتبور *Otpor* وبورا *Pora* استجابتا بسرعة للاعتقالات لدى وقوعها. فقد عمدت كلتا المجموعتان إلى تخصيص خطوط ساخنة لإبلاغ شبكات الدعم المحلية والمصادر

الإعلامية بالاعتقالات الحاصلة، ولتحشد تَوّاً مجموعات المحتجين كي تتحدّى مراكز الشرطة المحلية. ونتيجة لذلك، غالباً ما كان يتمّ إطلاق سراح المحتجزين في غضون ساعات فيشكلون إلهاماً يحثّ نشطاء جديداً للمخاطرة بالاعتقال²³. ففي أوكرانيا، دعت منظمة بورا *Pora* "مجموعات خاصة" من البرلمانيين المعارضين وأمناء المظالم إلى "الحدّ بشكل جدّي من إمكانات التحقيقات" (كاسكيف Kaskiv ، مقابلة ، 2005) (Kaskiv, interview, 2005). والواقع أنّ الاستجابات السريعة المماثلة من قبل السكان المحليين أدّت دور المثبّطات لاستخدام القوة. ففي 4 تشرين الأول/أكتوبر، تمّ على سبيل المثال إرسال مئات من عناصر الشرطة لقمع العمال في منجم كولوبارا Kolubara للفحم، حيث أعلن 7000 عامل من عمال المناجم إضراباً منذ 29 أيلول/سبتمبر (صحيفة نيويورك تايمز *New York Times* ، 5 تشرين الأول/أكتوبر 2000) (*New York Times*, October 5, 2000). وتكتسي هذه المناجم أهمية كبرى لقطاع إنتاج الكهرباء في صربيا، وهدد هذا الإضراب بفرض انقطاع تيار كهربائي حادّ. وفيما اقتربت الشرطة من المناجم، بدأ العمال يتّصلون بأشخاص من البلدات والقرى المجاورة، فتهافتوا سريعاً إلى الموقع للدفاع عنهم. تجاهلت الشرطة في النهاية الأوامر لتفريق الحشود.

ففي كلّ من صربيا وأوكرانيا، عملت النخب السياسية على التوسّط لإبرام اتفاقات ضمنيّة مع أفراد في قوات الشرطة. قبل أي حدث، على سبيل المثال، وضع النائبان الأوكرانيان فولودومور فيلينكو Volodomor Filenko وتاراس ستيتسكيف Taras Stetskiy "خطة خاصة للإعداد والسلوك". بالإضافة إلى التقدّم بطلب للحصول على تصاريح من المدينة قبل وقوع الأحداث الجماهيرية التي نظّمها "أوكرانيا لنا" ، فقد بعثا رسائل رسمية إلى الأشخاص المناسبين في مراكز الشرطة المحلية. وهما يؤكّدان أنّ هذه الرسائل وفّرت لهما "ذريعةً لعقد اجتماع حتى نستشّف مزاجهم ونتوقّع ما ينتظرنا" (ستيتسكيف Stetskiy ، مقابلة ، 2005) (Stetskiy, interview, 2005). ففي كييف ، تمّ التركيز بشكل خاص على التواصل مع مجلس المدينة وعناصر الشرطة التابعة له. مع حلول الثورة البرتقالية وبعد مناقشات متعددة مع قادة حزب "أوكرانيا لنا" ، وافقَ رئيسُ بلدية كييف أولكسندر أولميتشنيكو Oleksander Omelchenko

²³ كان ليصعب تطبيق هذه الاستراتيجية لو أنّ التعذيب هذا شكّل عنصراً أكثر انتشاراً في استجواب الشرطة. ففي صربيا، تعرضت نسبة أقل من 1% من المعتقلين للتعذيب. وحدثت القضية الأكثر وحشيةً في فلاديسين هان Vladicin Han جنوب صربيا حيث قامت الشرطة بتعذيب سبعة من نشطاء أوتبور Otpor لمدة ثلاث ساعات. وما أنفذهم كان تجمّع 300 مواطن أمام مركز الشرطة يطالبون بالإفراج عنهم.

على التعاون الكامل مع شرطة العاصمة، التي تخضع لقيادة مزدوجة تتوزع بين حكومة المدينة ووزارة الداخلية (كبير منسقي حزب "أوكرانيا لنا" Our Ukraine ، مقابلة ، 2005) (Senior Our Ukraine coordinator, interview, 2005).

في اجتماعاته مع مسؤولي قوى الأمن، يذكر المنسق ستيتسكيف Stetskiy التشديد على احتمال فوز المعارضة وعلى واقع أن حزب "أوكرانيا لنا" كان يراقب أعمالهم:

"قلنا لأولئك الذين تحدّث إليهم: "أيها الشعب الحبيب، كوتشما Kuchma لن يربح أبداً. ما يعني أن يانوكوفيتش Yanukovich لن يفوز، لأن الشعب يؤيد يوشينكو Yushchenko. لذا نطلب منكم ألا تنتهكوا القانون، لأنكم ستحملون المسؤولية". لقد كررنا ذلك كصلاة. وفزنا في الحرب الدعائية، ودفعناهم ليتدّوا، وزرعنا فيهم بعض الشكوك بأن كوتشما Kuchma سيتمكن من الفوز. هذا مفهوم مهم للغاية؛ فعندما يشوب عدوك الشك، وأنت يسكنك اليقين. تكتسب المزايا كلها. (ستيتسكيف Steskiy ، مقابلة ، 2005) (Steskiy, interview, 2005)."

في خلال هذه الاجتماعات يخبر ستيتسكيف Stetskiy: "لقد استغرقتنا المهمة جهوداً طائلة ووقتاً طويلاً لإقناعهم بأن السلطة القديمة ستنتهاز وأنها لن تستمر قط. إنما بكل الأحوال، كانت هذه هي الرسالة المهمة الواجب إيصالها". (ستيتسكيف Stetskiy ، مقابلة ، 2005) (Steskiy, interview, 2005). كان نجاح هذه الجهود مرهوناً بحجم الدعم الشعبي الذي تمكّنت المعارضة من حصده. ويذكر فولوديمير فيلينكو Volodymyr Filenko في هذا الإطار، أن الاتصالات بين الشرطة والمعارضة "لم تسفر عن أي نتيجة قبل خروج الناس إلى الشوارع. ما إن خرج الشعب إلى الشارع، حصدنا نتائج المعارف والاتصالات التي بنيناها. فلولا تواجد هذا العدد الهائل من الأشخاص في الشوارع لما توصلنا إلى مفاوضات ولا إلى اتفاقات. كانت الخلفية التي تتمّ الاجتماعات مقارنةً بها." (فيلينكو Filenko, interview, 2005) (فيلينكو Filenko ، مقابلة، 2005) 24

24 فيلينكو Filenko ، ف ، 2005 ، مقابلة مع أ. بينديتش 10 حزيران/يونيو 2005، كييف. (تسجيل الفيديو لا يزال مع المؤلف). وقد علّق فرد آخر من منظمة "أوكرانيا لنا": "في مناسبات عدة ، طلب يوشينكو Yushchenko من الجيش والشرطة عدم إطاعة الأوامر غير القانونية، إنما لم تظهر أي علامات تقدّم حتى خرج الناس فعلياً إلى الشوارع، أو حتى جعلهم من مؤيدي يوشينكو Yushchenko". (بوركوفسكي Burkovsky ، مقابلة، 2005).

في صربيا، تمّت عمليات اتصال هادئة ومكثفة بين قادة الشرطة وزعماء المعارضة السياسية في خلال الأيام العشرة بين 25 أيلول/ سبتمبر أيّ تاريخ إعلان نتائج انتخابات 5 تشرين الأول/أكتوبر. في خلال تلك الفترة، صرّح بعض قادة الشرطة علناً أنّهم لن يتّخذوا أيّ مبادرات ضدّ المحتجين، لكنّ هؤلاء الأفراد تعرّضوا على الفور إلى إطلاق النار²⁵. وعلّق زوران جينديتش Zoran Djindjic لاحقاً فأخبر "في الاجتماع الذي عُقد بين ليلة الأربعاء والخميس [4 و 5 تشرين الأول/ أكتوبر] قرّر الكثير من قادة الشرطة عدم التّدخل. وصلتنا هذه المعلومات.... قالوا لنا: سننقلّي أوامر إنما لن ننفذها لذا لا داعي للقلق. وهذا ما حدث فعلاً."²⁶

أجهزة المخابرات الأوكرانية

منذ تشرين الثاني/نوفمبر 2004 تزايدت النقاشات حول تأثير أجهزة المخابرات الأوكرانية (SBU) *Sluzhba Bespeky Ukrayiny*، بنجاح الثورة البرتقالية. (راجع مجلة نيويورك تايمز *New York Times*، 17 كانون الثاني/يناير 2005 ومجلة *Eurasian Daily Monitor*، 24 كانون الثاني/يناير 2005 للحصول على المزيد من المعلومات حول هذا النقاش). رغم أنّ مصادر تزعم بأنّ موقف الجيش شكّل عاملاً حاسماً أكثر من دور أجهزة المخابرات في ردع عملية سفك الدماء، إلا أنّ دراسة انهيار الولاءات في هذه المؤسسة لأمرّ يستحقّ الدراسة المعمّقة أيضاً.

في خلال الحملة كلّها، تجلّت نوايا الوكالة على أنّها صعبة التقييم. فعندما أسس مقرّ التحالف السياسي لحزب "أوكرانيا لنا" في كييف في العام 2002، أخذت وكالات الأمن المتعددة بما فيها

²⁵ "سرّح قائد الوحدة الخاصة بمكافحة الإرهاب SAJ، العقيد زيفكو ترايكوفيتش Zivko Trajkovic يوم الخميس الماضي [28 أيلول/ سبتمبر 2000]، وأعيدت تشكيل الوحدة من دون أيّ تفسير إلى كرسلمية Kursumljia [بلدة صغيرة في جنوب صربيا]." (غلاس جانوفسكي Glas Javnosti، 2 تشرين الأول/أكتوبر 2000).

²⁶ أضاف Djindjic جينديتش أيضاً: " في منتصف الليل اكتشفنا أن فلانكو ستوييلكوفيتش Vlajko Stojiljkovic [وزير الداخلية] أبلغ أربعة إلى خمسة من قادة ألوية الشرطة، قادة يأمرون الآلاف من رجال الشرطة ويسيطرون عليهم، باستخدام القوة في اليوم التالي [5 أكتوبر/تشرين الأول]. ولم يعن الأسلحة النارية فحسب إنما المتفجرات أيضاً، وذلك بغية منع القوافل من الوصول إلى بلغراد. وعلمنا كذلك أنّ ميلوسيفيتش Milosevic كان قد أعطى الأوامر بالدفاع عن الحكومة بأيّ ثمن. وتمّ إيقاف هذه الإجراءات كلها عند قمة سلسلة القيادة من قبل بعض الجنرالات الذين تواصلنا معهم تلك الليلة. لم نصدّقهم تماماً، لكننا وضعنا الإستراتيجية القائمة على هذه المعلومات. مع ذلك، لم نصدّق كلامهم إلا أنّنا خططنا للإستراتيجية استناداً إلى هذه المعلومات." (مجلة فريم Vreme، 2 تشرين الثاني/نوفمبر، 2000)

وكالات المخابرات بمراقبته عن كذب (فيلنكون Filenko ، مقابلة ، 2005 ، Filenko, interview, 2005). في تشرين الأول/أكتوبر 2004 ، أقدم عملاء المخابرات الأوكرانية بتياب مدنية على نهب العديد من مكاتب المنظمات غير الحكومية والمسكن الشخصية المعنوية بالانتخابات، فصادروا وثائق تشمل سجلات قوائم الناخبين ومصادر تمويل الحملات. (أوكرانيا برافدا *Ukrayinska Pravda* ، 23 تشرين الأول/أكتوبر 2004).

والواقع أنّ الولاءات داخل جهاز المخابرات الأوكرانية انقسمت منذ البداية. ووصف أحد المراقبين المطلعين على خبايا المؤسسة الديناميات التي تحركها كما يلي: "تجلت الحقيقة في أنّ أجهزة الأمن الأوكرانية انقسمت إلى ثلاثة توجهات. أولها يؤيد يانوكوفيتش Yanukovych ، وثانيها كان يحاول تبادل المعلومات مع المعارضة، في حين أنّ الجزء الثالث كان محايداً خاملاً. وشكّل تفكك جهاز المخابرات وانعدام وحدته ميزة أخرى طبعت الثورة (صحافي في القناة الخامسة، مقابلة، 2005) (Fifth Channel journalist, interview, 2005)."

في الحملة، مدّت المعارضة وعناصر أجهزة المخابرات الأوكرانية شبكات اتصال غير رسمية في ما بينها. وقد تواصل الكثيرون من مناصري حزب "أوكرانيا لنا" مع معارف من النخبة في جهاز المخابرات المحلي قبل إطلاق الحملة. فرتيس جهاز المخابرات نفسه الجنرال إيهور سميشكو Ihor Smeshko تربطه علاقات كثيرة مع قادة المعارضة تعود إلى العام 1992 حينئذ كان يشغل منصب الملحق الدفاعي الأول لأوكرانيا في واشنطن العاصمة (سميشكو Smeshko ، مقابلة ، 2005) (Smeshko, interview, 2005). ويبقى سميشكو Smeshko شخصية مثيرة للجدل في تاريخ الثورة البرتقالية. وقد عُقد اجتماع في وقت متأخر من الليل بين مرشح المعارضة فيكتور يوشينكو Victor Yushchenko ، والجنرال سميشكو Smeshko وغيره من كبار المسؤولين في جهاز المخابرات الأوكرانية في أوائل أيلول/سبتمبر، ليناقدشوا على حدّ تعبير سميشكو Smeshko مشاركة جهاز المخابرات أو عدم مشاركته في الانتخابات الرئاسية. والجدير بالذكر أنّ هذا الاجتماع اشتهر بسبب ارتباطه المحتمل بتسميم يوشينكو Yushchenko. وبعد انتهاء الاجتماع علّق هذا الأخير إذ أبدى استياءً حيال "التصرف الغير اللائق" الذي انتهجته أجهزة الحكومة في خلال الانتخابات: "أردت أن أطبع في رأس المخابرات أنّ القانون يسود فوق كلّ شيء في هذا المجال." (أوكرانيا برافدا *Ukrayinska Pravda* ، 2 تشرين الأول/أكتوبر 2004).

لما كان سميшко Smeshko على رأس جهاز المخابرات، اعتبره كعامل موازن في الصراع على السلطة السياسية الذي يعصف بأوكرانيا لكنّه لم يخفِ قط امتعاضه الشخصي حيال الماضي الإجرامي للمرشح يانوكوفيتش Yanukovych (سميشكو Smeshko، مقابلة، 2005) (Smeshko, interview, 2005). وفي صيف 2004، كان قد عيّن جنرالاً في المخابرات الأوكرانية كصلة وصل برئيس أركان حزب "أوكرانيا لنا" أوليغ ريباتشوك Oleg Rybachuk، الذي سيتلقى بدوره معلومات حديثة منتظمة طوال خريف 2004 من قبل معارفه في قوى الأمن. كان ريباشوك Rybachuk أيضاً قد حصل على مستندات من مقر يانوكوفيتش Yanukovych العام تشير إلى عزمهم على تزوير الانتخابات. فعمد ريباشوك Rybachuk إلى استخدامها لاحقاً في مواد حملة حزب "أوكرانيا لنا" (مجلة Eurasia Daily Monitor، 14 كانون الثاني/يناير 2005) (كوزيو Kuzio، 2005، ب).

عندما التقى يوشنكو Yushchenko بسميشكو Smeshko في 24 تشرين الثاني/نوفمبر كي يطلب منه عناصر أمن لحمايته الشخصية، وضع رئيس جهاز المخابرات في خدمته ثمانية اختصاصيين من وحدة النخبة "ألفا" لمكافحة الإرهاب، ووافق على الاتصال بعناصر سابقين في المخابرات ليساعدوا في تأمين حماية الأفراد المشاركين في الحملة. إلا أنّه تمّ الاتفاق على أن تحافظ المخابرات على مكانتها الحيادية فيما يتعلق بنتائج العملية الانتخابية (مجلة New York Times، 17 كانون الثاني/يناير، 2005) (New York Times, 17 January, 2005).

عندما تمت تعبئة القوات الخاصة ليل 28 تشرين الثاني/نوفمبر، أدّت المخابرات دوراً فاعلاً في الاتصال بالفاعلين الأساسيين. فبحسب مصادر حزب "أوكرانيا لنا"، شميшко Smeshko اتّصل بالمدّعي العام وبوزير الداخلية وبرئيس شرطة كييف وطلب منها استدعاء قواتهم وتراجعها (وكالة الصحافة الفرنسية، 15 شباط/فبراير 2005). ونفيذ بعض التقارير الغير الأكيدة أنّ قوات "ألفا" الخاصة كانت مسلحة ومستعدة لتلقي قوى الأمن الداخلي في مسيرتها لدخول كييف (صحافي في القناة الخامسة، مقابلة، 2005) (Fifth Channel reporter, interview, 2005). وقد اعتبر أحد عناصر حزب "أوكرانيا لنا" الذي كان ينسق مع المخابرات الأوكرانية في ساحة "ميدان" أنّ دعم الجهاز أخذ على محمل الجدّ وجاء بمثابة إغاثة. ويذكرُ الجنرال أنتونيتس Antonets أنّ "في ما يتعلّق بجهاز المخابرات فقد عمل أفراد في ضواحي ساحة الميدان. إذ كانوا ملّمين بالوضع القائم، وبالتالي قادرين على اتّخاذ

قراراتهم الخاصة. في الفترة الأكثر صعوبة، وصلتنا معلوماتٌ تفيدُ بأنهم سيكونون إلى جانب ساحة ميدان "أنتونيتس (Antonets ، مقابلة ، 2004) (Antonets, interview, 2004).

حينما يراجعُ الجنرال شميسكو Smeshko دورَه في مجريات أحداث الثورة البرتقالية، تراه يؤكدُ على أنّ هدفه الأساسيّ تمثّل بالحوول دون وقوع حمام دماء يفضي بدوره إلى حربٍ أهليةٍ محتملةٍ (شميسكو Smeshko، مقابلة، 2005). أمّا مشاركون آخرون في الأحداث ومراقبون لها فادّعوا أن احتمال فوز المعارضةِ أدّى دوراً أساسياً متحججين بالتالي: "إنّ مسؤولي المخابرات الأوكرانية تعاونوا مع الجانبين لأنّهم أرادوا أن يكونوا على وفاق مع الفائز منهما." (صحافي في القناة الخامسة، مقابلة، 2005) (Smeshko, interview, 2005). ومن المنطلق نفسه، علّقت يوليا تيموشينكو Yulia Tymoshenko أنّ "ما حصل كان لعبة معقدة للغاية"، إذ شعرت بأنّ كبار مسؤولي جهاز المخابراتِ بمن فيهم الجنرال سمشكو Smeshko "تحوّطوا ليحافظوا على مكانتهم" بحسب ما جاء على لسان مراسل صحيفة نيويورك تايمز الذي أجرى المقابلة معها. (صحيفة *New York Times* ، 17 كانون الثاني/يناير 2005) (*New York Times*, January 17, 2005). فعلى الأرجح، أدت كلّ من الاعتبارات الأخلاقية والبراغماتية دوراً في التأثير على عملية صنع القرارات الفردية داخل المنظمة نفسها.

القوات الخاصة: دينامية "حجر، ورق، مقصّ"

اشتملت القوى الأمنية في كلا البلدين على عناصر مقاومين بعض الشيء للجهود التي بذلها الحراك اللاعنفي حيال إقناعهم في العدول عن ارتكاب الأعمال العنيفة بحق المحتجّين. وفي هذه الحالات، تمثّل الهدف الأساسيّ للحراك بالردع وليس الإقناع.

ففي أوكرانيا، شكّلت وحدات القوات الخاصة التابعة لوزارة الداخلية التي أرسلت إلى كييف والمناطق المحيطة بها من القرم وشرقي أوكرانيا، تهديداً فعلياً للمحتجّين²⁷. فقد عُزلت العناصر

²⁷ كانت القوات الخاصة التابعة لوزارة الداخلية BARS وغيرها من القوات، تشكّل وحدات سابقة في الحرس الوطني تم حلّها في العام 1999. واعتبرت فصائل القرم التابعة للحرس الوطني الأكثر فاعلية، وأصبحت بالتالي القوات الخاصة المعروفة بـBARS. أدّى وضع فرقة القرم للقوات الخاصة BARS في كييف إلى انتشار شائعات عن تعبئة وحدات spetsnaz الروسية في العاصمة. لمعرفة المزيد عن هذه الوحدات الأمنية المختلفة، راجع كوزيزو Kuzio، ت. ت، قوات الأمن غير العسكرية في أوكرانيا The Non-Military Security Forces

ذات الرتب الدنيا والمتوسطة عن معظم مصادر المعلومات، وأرسلت إلى الثكنات حيث خضعت للتدريبات في المخيمات المسوّرة. كان فريق "أوكرانيا لنا" لا يملك صلات اتصال وثيقة بأعضاء القيادة المحلية لشبه جزيرة القرم (وحدة تابعة لوزارة الداخلية تم نشرها من جديد بشكل مؤقت في منطقة كييف) أو بأفراد القوات الخاصة التابعة لوزارة الداخلية الذين شوهدوا بشكل متزايد في المدينة (أنتونيتس Antonets ، مقابلة ، 2005) (Antonets, interview, 2005). ففي كييف، تمركزت هذه القوات خلف شرطة بيركوت Berkut المحلية (مكافحة الشغب) غير المسلحة عند مدخل مقرّ الإدارة الرئاسية، وقد تلقّت الأوامر بإطلاق النار في حال اقتحمت المعارضة المبني (بوركوفسكي Burkovsky ، مقابلة ، 2005). ومن جهتهم، انتشر قناصة القوات الخاصة التابعة لوزارة الداخلية في مواقع مختلفة حول الساحة (Antonets, interview, 2005) (أنتونيتس Antonets ، مقابلة، 2005) 28. وفي خارج المدينة، أرسلت أعداداً أكبر بكثير من جنود وزارة الداخلية إلى ثكنات من دون منحهم إمكانية الوصول إلى مصادر الأخبار الخارجية. وواجه بدورهم زعماء المعارضة المكلفون بتطوير شبكة معارف مع الجهات الأمنية كما هائلاً من الصعوبات في التواصل مع هذه الوحدات، وبالتالي لم يتمكنوا من التنبؤ بدقة بالغة بما ستفعل هذه الأخيرة في حال تلقّت أوامر بإطلاق الإجراءات الصارمة. (أنتونيتس Antonets ، مقابلة ، 2005) (Antonets, interview, 2005). بالإجمال، توقع المراقبون أن أكثر من 15000 نفر من قوات وزارة الداخلية تجمعوا في كييف أو بالقرب منها في خلال الأسبوع الأول من الثورة (دبلوماسي غربي متمرس، مقابلة ، 3 تموز/يونيو 2005) (Western diplomat, interview, 3 June 2005). ففي ليل 28 تشرين الثاني/نوفمبر، أيّ بعد انقضاء أسبوع على بدء الاحتجاجات، كانت هذه القوات نفسها هي التي حُشدت وأطلقت ذخيرة حية على المتظاهرين. وفي صربيا أيضاً، أقدمت قيادة الجيش ووزارة الداخلية على جمع نخبة من القوات الخاصة تحت قيادتهما ومنحتها أجوراً عاليةً وتدريباً وتجهيزاتٍ متطورةً وعزلتها عن السكان. وشكّلت إحدى هذه الوحدات الخاصة، المعروفة بوحدة "القبعات الحمراء" للعمليات الخاصة ("JSO") ، المتورطة في جرائم الحرب التي حصلت في البوسنة والمرتبطة سمعتها بالجريمة المنظمة، تهديداً فعلياً. وقد عملت هذه الوحدات كجزء من قوى أمن الدولة

of Ukraine. صحيفة The Journal of Slavic Military Studies، عدد 13، رقم 4، (ديسمبر/كانون الأول 2000)، صفحة 29 إلى 56.

28 بحسب ما جاء على لسان أنتونيتس Antonets ، كانت وحدة قناصي أوميغا التابعة للواء القوات الخاصة BARS متمركزة ومستعدة على أسطح المنازل فوق ساحة الميدان.

المعروفة *Sluzba drzavne bezbednosti* وتحملت هذه الجماعة مسؤولية عدد من عمليات الاغتيال بما فيها اغتيال سلف ميلوسيفيتش Milosevic ، الرئيس السابق إيفان ستامبوليك Ivan Stambolic ، الذي اختطف وقتل في 25 آب/أغسطس 2000 ، قبل أسابيع قليلة من تاريخ الانتخابات الرئاسية.²⁹

أدى عاملان رئيسان دوراً مهماً في استراتيجيات الردع التي اعتمدها حراكا المعارضة. كان أولهما نسبة أعداد المتظاهرين مقارنةً بأعداد عناصر القوى المتوفرة. ففي صربيا، رغم أنّ أوتبور *Otpor* لم يكن متأكدًا من كيفية استجابة وحدات JSO على الاحتجاجات الجماهيرية، بقي أمامه يقين واحدٌ مؤكدٌ: يستحيلُ تفريق الحشود المتواجدة في شوارع بلغراد من دون إطلاق النار عليهم إذ يبلغ عددهم مليون فرد فيما يبلغ عدد القوى المسلحة ما يقاربُ الـ300 نفر فحسب. وفي أوكرانيا، كان الوضعُ مماثلًا. فحسب أحد المصادر المتواجدة في ساحة التظاهر وقت الاحتجاجات، أدرك قادةُ القواتِ الخاصةِ ورؤساءِ القوى الأخرى إدراكاً واضحاً "أنّ وزارة الداخلية لا تملك عتاداً ولا عتيداً كافيين لدفع الحشود كي تغادرَ ساحة الميدان بسلام." (Fifth Channel reporter, interview, 2005) (صحافي في القناة الخامسة، مقابلة، 2005).³⁰

وتمثّل العنصر الحاسم الثاني بالضوابط والتوازنات بين مختلف الخدمات. ففي أوكرانيا ، أشار أحد المراقبين إلى أنّ القواتِ الخاصةِ التابعة لوزارة الداخلية كانت على علم تامّ بمجريات سيناريو "مقص ورق حجر " حيث " تتغلّب وزارة الداخلية على المتظاهرين ويتفوقُ الجيشُ على وزارة الداخلية". (Senior Western diplomat, interview, 2005) (دبلوماسي غربي متمرّس، مقابلة ، 2005).³¹ ربما اكتست هذه الديناميكية طابعاً أكثر وضوحاً في 28 تشرين الثاني/ نوفمبر، عندما أثارت الاحتكاكاتُ بين عناصر الجيش وأفراد جهاز المخابرات الأوكرانية وقوى وزارة الداخلية تردداً في نفوس الموالين للنظام، كما سبق أن شرحنا. ففي العام 2000 ،

²⁹ تحمّل فيما بعد "مكتب الدعم المشترك" مسؤولية اغتيال رئيس مجلس الوزراء زوران دينديتش Zoran Djindjic الذي قتل في مارس 2003 أمام مبنى الحكومة الصربية في بلغراد. ونتيجة لتلك العملية حُطرت الوحدة واعتقل قادتها.

³⁰ رغم أنّ خراطيم المياه كانت تتمركز قرب ساحة "الميدان" ومبنى الإدارة الرئاسية لكنها لم تكن بشكل مؤكّد آلية فعالة ضدّ هذه الحشود الكبيرة.

³¹ كان الدبلوماسي يشير إلى لعبة الأطفال "مقص ورق حجر " حيث "الحجر" يتغلّب على "المقص" والورق على "الحجر" ، إلخ.

أدرك منظمو أوتبور Otpor الصربيون أنهم حتى لو لم ينجحوا في إيصال رسائلهم إلى أفراد القوات الخاصة، بات جلياً أن غالبية القوات المسلحة لا تبدي أيّ رغبة في الدفاع عن النظام ضد المتظاهرين العزل. وبالتالي، تمثل أمل أوتبور Otpor الوحيد في أن يدرك قادة الوحدات عجزهم عن إيقاف الاحتجاجات³². ففي الواقع، يتخفى وراء خلفية السيناريوهين مسار تغيير النظام الروماني في العام 1989، عندما حاولت قوات الأمن الداخلية أن تسحق الاحتجاجات ضد نيكولاي تشاوشيسكو Nicolae Ceausescu ، لكنّها اشتبكت في نهاية المطاف مع قوات الجيش الداعمة للمتظاهرين. وبالتالي فإنّ الانقسام بين المؤسسات الأمنية قد بدّل إلى حدّ بعيد في تحليلات فعالية الكلفة لدى عناصر قوات الأمن المستعدين للبقاء موالين للأنظمة.

خاتمة

إنّ الاهتمام الاستراتيجي الذي يولى لقوى أمن الدولة يفيد ثلاث وظائف أساسية تكتسيها القوة في ساحة المعركة للنضال اللاعنف: الدفاع، والردع والإجبار. فمن حيث الدفاع، يخفي هذا الاهتمام أثر سلاح النظام العنيف ضد الحراك وحلفائه. (أكرمان Ackerman وكرولر Kruegler ، 1994). وفيما ترتفع تكاليف القمع وتخفض القدرة على إحباط المعارضة، قد تتراجع قيادة النظام عن محاولة ممارسة القوة القسرية (داهل Dahl ، 1971). أخيراً، من خلال إضعاف أحد مراكز القوة الأساسية لدى النظام، قد ينجح الحراك في إجباره على اتّخاذ إجراءات لم يكن ينوي تبنيها قط شأن المفاوضات بوساطة دولية، أو معايير انتخابية جديدة، أو حتى التنحي التام عن السلطة.

رغم أنّ مختلف السمات الهيكلية المرافقة لأيّ صراع معيّن تحظرّ التعميمات التكتيكية المعادلة، إلا أنّ بعض الموضوعات المشتركة بين القضيتين الأوكرانية والصربية تشكّل مصدر استيحاء. يتمثل أولها بنجاح الحراكين في رفع مخاطر القمع الممارسة على الأفراد عبر سلاسل قيادة قوى الأمن. وقد اعتمدا في هاتين الحالتين على الحشود الكبيرة، أو الاستفادة من الاهتمام

³² أعلن زفونيمير ترايكوفيتش Zvonimir Trajkovic ، مستشار ميلوسيفيتش Milosevic بين العامين 1990 و 1993 ، في وقت سابق من أيار/ مايو 2000: "أثق كلّ الثقة بأن الحرب الأهلية في صربيا مستحيلة إذ لا وجود لجانب آخر، فجاناب ميلوسيفيتش Milosevic هو الجانب الوحيد.... فالجيش لا يقتصر على القائد الأعلى، وقائد الأركان وبعض الجنرالات بل هو العمداء ولن يطلق هولاء النار على شعبهم وأبنائهم ولن تتدخل الشرطة بدورها بقوة وتستهدف الناس بالذخائر الحية. ففي معظم الأحيان يرسلون (هم ممثلو النظام) مجموعة من الشرطيين المتطرفين المستعدين لارتكاب أعمال مماثلة. إنما حينما تظهر الحشود القوية الحاسمة، لن تتدخل عناصر الشرطة أبداً. إذ يستحيل عليهم التدخل تقنياً." (صحيفة داناس Danas ، إصدار نهاية الأسبوع، 13 أيار/ مايو 2000)

الدولي، أو التغطية الإعلامية غير الرسمية. ويكمن ثانيها في إظهار كلِّ من الحراكين دعماً شعبياً واسع النطاق لأهدافه السياسية، وتأكيدهما على نجاحهما شبه المضمون في هذا المضمار. إذ تمكّنا من استمالة أفراد الشرطة وأنفار الجيش من أصحاب الرتب الدنيا الذين تزعرع إيمانهم بنجاة النظام واستمراريته وتعزّزت أوصل الروابط بينهم وبين عائلاتهم ومجتمعاتهم المحلية. وأخيراً، ينعكسُ ثالثها بنجاح الحراكين على حدِّ السواء في استغلال السياسة التنظيم الذاتي والمحافظة على الطابع اللاعنفي ليحدّا من المواجهات الغير الضرورية مع قوى الأمن ويكذباً محاولات النظام في تصويرهما كمنظمتين "إرهابيتين".

وعلى الرغم من التوقّعات الهائلة بأنَّ النظامين الصربي والأوكراني لن يتخلّيا عن السلطة من دون إرهاب الدماء، نجحت هذه الجهودُ مجتمعةً في تحقيق عمليات انتقال سياسي بعيدة كلِّ البعد عن الدمار المتأتّي عن العنف.

المقابلات

Antonets, V., 2005. Interview with A. Binnendijk on 15 June 2005. Kiev.

[Cassette recording in possession of Author.]

Bezverkha, A., 2005. Interview with A. Binnendijk, 7 June 2005. [Cassette recording in possession of Author.]

Burkovsky, P., 2005. Interview with A. Binnendijk, 12 June 2005. Kiev.

[Cassette recording in possession of Author.]

Fifth Channel reporter, 2005. Interview with A. Binnendijk, 8 June 2005.

Kiev. Filenko, V., 2005. Interview with A. Binnendijk, on 10 June 2005.

Kiev. [Cassette recording in possession of Author.]

Officer, Interior Ministry, Kiev Organized Crime Division, 2005. Interview with

A. Binnendijk on 12 June 2005. Kiev.

Our Ukraine coordinator. 2005. Interview with A. Binnendijk on 9 June 2005. Kiev.

Senior Western diplomat, 2005. Interview with A. Binnendijk on 7 June

2005. Kiev.

Senior Western diplomat. 2005. Interview with A. Binnendijk on 31 May 2005. Kiev.

Stetskiv, T., 2005. Interview with A. Binnendijk 10 June 2005. Kiev. [Cassette Recording in Possession of Author.]

Tarasyuk, B., 2005. Interview with A. Binnendijk on 14 June 2005. Kiev.

Ukrainian journalist, 2005. Interview with A. Binnendijk. 1 June 2005.

Kiev. Western diplomat. 2005. Interview with A. Binnendijk on 1 June 2005. Kiev. Zolotariov, Y., 2005. Interview with A. Binnendijk, 30 May,

2005. Kiev. [Cassette recording in possession of Author.]

لائحة المصادر والمراجع

Ackerman, P., Kruegler, C., 1994. Strategic Nonviolent Conflict. Praeger, Westport.

Ackerman, P., Duvall, J., 2000. A Force More Powerful: A Century of Nonviolent Conflict. Palgrave, New York.

Agence France Presse, 2005. The stealthy role of military informers in Ukraine revolution. February 15.

Dahl, R., 1971. Polyarchy: Participation and Opposition. Yale University Press, New York.

Glas Javnosti, October 2, 2000.

Grytsenko, A., 2000. Civil-Military Relations in Ukraine: On the way from Form to Substance. NATO Fellowship Programme report.

Helvey, R., 2004. On Strategic Nonviolent Conflict. The Albert Einstein Institution, Boston. Humanitarian Law Fund report, 2001. Police Crackdown on OtpordSerbia, 2 May to 24 September 2000.

Belgrade, November 23.

Kaskiv, V., 2005. PORAdVanguard of Democracy. Kiev, December 6.

Kuzio, T., December 2000. The non-military security forces of Ukraine. Journal of Slavic Military Studies 13 (4), 29e56.

Kuzio, T., January 24, 2005a. Did Ukraine's security services really prevent bloodshed during the Orange Revolution? Eurasia Daily Monitor 2 (16).

Kuzio, T., 2005b. PORA! Takes two different paths. Eurasia Daily Monitor 2 (23).

Martin, B., Varney, W., 2001. Communicating Against Repression. Hampton Press, Cresskill, NJ.

Ministry of Interior, Belgrade, June 7, 2000. Information on illegal activities of the fascist-terrorist organization Otpor. Analytics Directorate. Ministry of Interior, Belgrade.

Nezavisna Svetlost, 2000. Interview with Momcilo Perisic. July 8. Kragujevac.

Sharp, G., 1973. Politics of Nonviolent Action. Porter Sargent, Boston.

Vreme, 2000. Interview with Zoran Djindjic. November 2.

مزيد من المواد للمطالعة

Boyko, V., 2005. Secrets of the 'last supper'. Ukrayinska Pravda 2 October 2004.

Chivers, C.J., January 17, 2005. How Top spies in Ukraine changed the nation's path. New York Times. Chivers, C.J., Shanker, T., June 17, 2005. Uzbek ministries in crackdown received U.S. aid. New York Times.

Committee of Voters of Ukraine, 2004. CVU Report on Pre-election Period, April-May 2004. Kiev, May. Cosic, S., May 13, 2000. President

seriously thinks about stepping down. Interview with Zvonimir Trajkovic. Danas (weekend edition).

Erlanger, S., October 5, 2000. Serbian strikers, joined by 20,000, face down police. The New York Times. Goati, V., 1999. Elections in FRY 1990e1998. Center for Free Elections and Democracy CESID, Belgrade.

Guzhva, I., Popov, O., Chalenko, O., 21 November, 2005. Maidan's secrets. Segodnya.

Police release 18 students detained during protest march to Kiev. Kiev Interfax, August 5, 2004. Sharp, G., 2005. Waging Nonviolent Struggle. Porter Sargent, Boston.

Ukrayinska Pravda, 2004. Ransacking of youth groups' offices detailed. October 23.

Warner, T., November 25, 2004. Riot police hold fire in uneasy stand-off with Ukrainian protesters. Financial Times.

Wolf, D., May 13, 2005. A 21st century revolt. Guardian.